المشرق الرقميّة
العدد الثاني والعشرون
حزيران ٢٠٢٣

موريس بومرانتز

السّحر الحلال

الصّاحب بن عبّاد (ت. ٣٨٥/٩٩٥) ورسائله
نقلته إلى العربيّة مريم سعيد العلي
ط.١، ٢٢١ ص.، بيروت: دار المشرق، ٢٠٢٢

(ISBN: 978-2-7214-8183-2)

كتاب **السّحر الحلال: الصّاحب بن عبّاد (ت٣٨٥/٩٩٥) ورسائله**،[١] بالأصل هو موضوع أطروحة دكتوراة نالَ مؤلّفها موريس بومرانتز درجة دكتوراه من جامعة شيكاغو في الولايات المتّحدة في العام ٢٠١٠، بإشراف البروفسورة الأميركيّة اللّبنانيّة الأصل وداد القاضي. وفي العام ٢٠١٨ طوّع بومرانتز الأطروحة لتُنشَر كتابًا صدر عن دار بريل – لايدن في هولّنده في سلسلة Islamic History and Civilization Studies and Texts، ثمّ ترجم الكتاب بسبك متين – بعد أن نقلته الأستاذة مريم سعيد العلي إلى اللّغة العربيّة مشكورة – ليصدر عن دار المشرق، في العام ٢٠٢٢.

الكتاب/الأطروحة الّذي بين أيدينا قام مؤلّفُها برحلة طويلة بين تصنيفات الصّاحب بن عبّاد ورسائله، كما وصلته من المصادر العربيّة القديمة والمحرّرة، والمصادر العربيّة الحديثة كالدّراسات والأبحاث المعاصرة باللّغة العربيّة وباللّغات الأوروبيّة، بخاصّة الإنكليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة. المصادر العربيّة القديمة المتوافرة منذ القرن العاشر الميلاديّ، وما تلاها، والمصادر المعاصرة من دراسات وأبحاث يسّرت للدّارس الأرضيّة التّحتيّة العلميّة، وأعطت شهادة على الجهد الّذي يقوم به المستشرِق موريس بومرانتز إذ عقد النّيّة على سبر أغوار قدرة الأديب والوزير الصّاحب بن عبّاد على أن يكوّن له شخصيّة أدبية مبدعة إلى جانب شخصيّة موسوعيّة، اشتُهرت بفنون الكتابة في حقبة الدّولة البويهيّة الّتي تمتّعت بالرّخاء الاقتصاديّ، وظلّت قائمة حوالى مائة وثلاثة عشر عامًا (٣٣٤–٤٤٧/٩٤٥–١٠٥٥) بين ثلاثة أقاليم: إقليم فارس، وإقليم الجبال، وإقليم العراق والأهواز وكمران.

[١] موريس بومرانتز، **الصّاحب بن عبّاد (ت. ٣٨٥/٩٩٥) ورسائله**، نقلته إلى العربيّة مريم سعيد العلي، (بيروت: دار المشرق، ٢٠٢٢).

عندما قرأتُ عنوان الكتاب لأوّل مرّة، قفز إلى مخيّلتي في الحال كتابٌ صدر مؤخّرًا، يحمل تعبير "السّحر" نفسه في عنوانه: **كيف سحر القرآن العالم؟** (٢٠٢٢)[٢]، وصاحبة الكتاب أنجيليكا نويفيرث هي إحدى أهمّ علماء القرآن الكريم في الزّمن المعاصر. ومصطلح "السّحر" الّذي يبرز في كتاب العربيّة الأكبر، ما هو إلّا سحر البلاغة الّتي ربطت نظم القرآن بالإعجاز البيانيّ، ويبرُز في الكتاب الثّاني شكل من أشكال التّواصل وفنون الكتابة حيث يبثّ فيها الكاتِب أفكاره بأسلوب أدبيّ إبداعيّ، فتبرز الثّقافة الغنيّة الّتي يتمتّع بها صاحب الرّسالة. والتّرسّل هو إحدى أهمّ المهارات الّتي يُلزَم الوزير التّمرّس بها، إلى جانب "لازمة ضروريّة لحمل لواء الأدب" (ص. ٨٧–٨٨)، إلّا أنّ الغرض من التّرسّل في مجموعة ابن عبّاد هي إمّا الرّسائل الرّسميّة والإداريّة "السّلطانيّات"[٣]، وإمّا "الإخوانيّات".[٤] والثّعالبي، في مفتتح باب الصّاحب بن عبّاد في **يتيمة الدّهر**، الّذي به شيء من المبالغة بمدح الصّاحب بن عبّاد، ربط بين ابن عبّاد والسّحر حين وصف الصّاحب بـ "أنّه بلغ من البلاغة ما يُعدّ من السّحر، ويكاد يدخل في الإعجاز" (٢٨).

مَن هو الصّاحب بن عبّاد؟

بدأ الصّاحب بن عبّاد حياته متولّيًا منصبَ الكتابة لأمراء الدّولة البويهيّة حتّى نال منصب الوزارة لمؤيّد الدّولة ثمّ لأخيه فخر الدّولة مِن بعده، وظلّ في منصبه حتّى وافته المنيّة (٣٨٥هـ./٩٩٥ م.). والصّاحب – هو لقب ابن عبّاد الّذي أُلحق به بعد أن قضى زمنًا بصحبة أستاذه ابن العميد للتّتلمذ عليه. وقد أخذ العلم والأدب عن هذا الأستاذ الكبير أبي الفضل محمّد بن الحسين الوزير الأديب الشّهير والمعروف بابن العميد، وغيرِه من كبار الأساتذة كالقاضي أبو سعيد السّيرافي البغداديّ، وأبو الحسين أحمد بن فارس، وأبو بكر أحمد بن كامل، وأبو بكر محمّد بن الحسن المعروف بابن مقسم، فدرس عليهم اللّغة بنحوها وصرفها وفقهها وعروضها وسائر فروعها، كما درس العلوم الإسلاميّة من تفسير وحديث وفلسفة وعلم كلام. وما سهّل عمليّة تقصّي الدّارس موريس بومرانتز لآثار واحد من ألمع نجوم الأدب في القرن الرّابع/ العاشر، الصّاحب بن عبّاد هو "تواتر ذكره في مجموعة واسعة من المصادر المختلفة" كمصنّفات تاريخ الفترة البويهيّة، مثل: **تجارب الأمم** لمعاصره ابن مسكويه (ت. ٤٢١/١٠٣٠)، وفي مؤلّفات العلماء في

---

[٢] أنجيليكا نويفيرث، **كيف سحر القرآن العالم؟** يُعدّ الكتاب من الكتب الصّعبة للتّرجمة من الألمانيّة لأسباب عدّة، منها الطّبقات العلميّة والموسوعيّة الّتي تستقي منها المؤلّفة مصادرها وجملها الطّويلة، لذلك نجد مَن ترجم (صبحي شعيب) ومَن راجع (مازن عكاشة) ومَن راجع مراجعة نقيّة (طارق حجّي). (القاهرة: مكتبة البحر الأحمر، ٢٠٢٢).

[٣] "تعكس السّلطانيات، كما تصفها مصنّفات الكتابة والإنشاء، هموم الحكّام المسلمين ومهامّهم. ويضمّ أوّل أنواعها الإصدارات الرّسميّة الّتي كان الحاكم يوجّهها مباشرة إلى عموم محكوميه كالاحتفال بالانتصارات العسكريّة، وإعلان إبرام المعاهدات مع الدّول الأخرى، وتعيينات كبار الموظّفين؛ ويشتمل النّوع الثّاني على المراسلات، مثل رسائل الحاكم إلى نظرائه من حكّام السّلالات الأخرى، أو رسائله إلى الولاة والقضاة، أو رسائل جباية الضّرائب وغيرها من الأمور الأخرى." انظر موريس بومرانتز، **السّحر الحلال**، ص.١٢٧.

[٤] "كانت الإخوانيّات من أكثر أنواع الرّسائل شيوعًا في العالم الوسيط، وكان موضوعها الرّئيس علاقة الصّداقة بين طرفين، رجلين في الغالب. في ذلك العالم، كانت الصّداقة تتّسع لِطَيفٍ عريض من الاحتمالات الاجتماعيّة والدّلاليّة، وعليه كانت الرّسائل بدورها متنوّعة في فحواها وأغراضها. لقد توسّل الكتّاب تحرير الوجدانيّات والعهود لتمكين الولاءات السّياسيّة وتسطير المجاملات، ومداراةً للالتزامات الاجتماعية والتّبعيّات الاقتصاديّة." بومرانتز، **السّحر الحلال**، ص.١٥٣.

القرن التّالي مثل **ذيل تجارب الأمم** لأبي شجاع ظهير الدّين الرّوذراويّ (ت. ١٠٩٥/٤٨٨). إضافةً إلى كتب الطّبقات والاختيارات الّتي "زوّدت بتفاصيل مهمّة عن فترة مبكّرة من حياته وعن بدايات نشاطه الأدبيّ" (ص.٢٠) وبوجهٍ خاصّ **محاضرات الأدباء** للرّاغب الأصفهاني (ت. في بداية القرن الخامس/الحادي عشر) و**معجم الأدباء** لياقوت الحموي (ت. ١٢٢٩/٦٢٦). لكنّ أدباء البلاط، كما يؤكّد بومرانتز، هم مَن نقل إلينا أرهف الأخبار المفعمة بالحيويّة، وكثيرة هي أخبار ابن عبّاد في مصنّفات أديبَي البلاط ممّن يُعدّان علمَين في القرن الرّابع/ العاشر، وهما أبو منصور الثّعالبي في كتابه **يتيمة الدهر** وأبو حيّان التّوحيديّ في **أخلاق الوزيرين**، وكلّ منهما، كما يناقش الدّارس، قدّم إلينا الصّاحب بن عبّاد من منظورٍ مغاير: الثّعالبي الّذي في كلامه شيء من التّضخيم وأبو حيّان التّوحيدي الّذي "لا يحمل على طباع ابن عبّاد فحسب، وبل يطعن في مهاراتِه الأدبيّة ويسخر من تعدّياتِه البلاغيّة" (٢٩).

إنّ فنّ التّرسّل وكتابة النّثر – بكلام المؤلّف بومرانتز – "تكشف عن نظام أدبيّ ثمّن عاليًا سلطة الكلمات البليغة والرّجل الّذي يحرّرها" (ص. ٢٠) وكان هذا الفنّ يقي صاحبه "شرّ تقلّبات عالمه القلق، في ظلّ تأثير نظام البلاط والنّفوذ السّياسيّ على إنتاج المعرفة بطرق مختلفة" (٦٧).

ينقسم كتاب **السّحر الحلال: الصّاحب بن عبّاد (ت ٣٨٥/٩٩٥) ورسائله** إلى تسعة فصول إضافة إلى الخاتمة والبيبليوغرافيا الّتي تحتوي المصادر العربيّة والأجنبيّة. ولأنّ الصّاحب بن عبّاد يتميّز برؤية مفكّر معتزليّ متبحّر، سأطلّ إطلالة سريعة على الفصل الثّالث بعنوان "عالِم معتزليّ" لأنّه يتّصل اتّصالًا مباشرًا بالمباحث الفكريّة بحيث "كان ابن عبّاد في جلّ أيّام حياتِه عالمًا مقدَّمًا لا مشاركًا في المناظرات الفكريّة في زمانه وحسب، بل ومشكِّلًا لها ومبلورًا" (٦٧).

في الدّفاع عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة، أي ما يُسمّى علم **الكلام**، كان ابن عبّاد نصيرًا لعلم الكلام المعتزليّ ومتأثّرًا بشكل عميق بأستاذه علي أبي عبد الله البصريّ (ت. ٩٧٩/٣٦٩)، أحد أعلام البصرة. وقد أدخلَ ابنُ عبّاد القاضي عبد الجبّار الهمذاني (ت. ١٠٢٥/٤١٥) في بلاطه بأصفهان. وقام بنظم أبيات تشرح مبادئ مذهب المعتزلة (**رسالة في الهداية والضّلالة**).[٥]

في كتاب الصّاحب بن عبّاد **الإبانة عن مذهب العدل بحجج القرآن والعقل**[٦] "يُجمل مذهب الكلام المعتزليّ على هدي مصنّفات اعتزاليّة أكبر من أصول الدّين." يقع الكتاب في قسمين رئيسيّين: التّوحيد والعدل، يقابل ابن عبّاد فيه آراء المعتزلة بآراء أصحاب المذاهب الأخرى، مستندًا إلى أدلّة القرآن وإلى التّحاجج الاستدلاليّ العقليّ. (٧١). **كتاب التّذكرة في الأصول الخمسة:** "هذا كتيّب في الأصول الخمسة لمذهب المعتزلة، حججه مستمدّة، كما **كتاب الإبانة**، من القرآن والقياس العقليّ، ولعلّه مثل النّصّين السّابقين لتعليم مبادئ المعتزلة الأساسيّة[٧]، و**كتاب نهج السّبيل في الأصول والمعطيات** نشرهما مؤخّرًا فيلفرد ماديلونغ

---

[٥] ابن عبّاد، **رسالة في الهداية والضّلالة**، تحقيق حسين علي محفوظ (تهران: مطبعة الحيدريّ، ١٩٥٥)، ٣٤.

[٦] ابن عبّاد، **كتاب الإبانة عن مذهب أهل العدل، في نفائس المخطوطات**١، تحقيق محمّد آل ياسين (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٥٢).

[٧] ابن عبّاد، **كتاب التذكرة في الأصول الخمسة، في نفائس المخطوطات** ٢، تحقيق محمّد آل ياسين (بغداد: مطبعة المعارف، ١٩٥٤).

وسابين شميتكه. وهما يبرهنان على معرفة ابن عبّاد الرّفيعة بجليل الكلام المعتزليّ ودقيقه، وعلى أنّه هو نفسه متكلّم معتبر. (٧٢)

في **اللّغة** وضع ابن عبّاد تصانيف مهمّة في دراسة اللّغة العربيّة. وله في الإملاء **الفرق بين الضّادّ والزّاء**، وقاموسان: **جوهرة الجمهرة**، يختصر فيه **قاموس جمهرة اللّغة** لابن دريد (ت. ٣٢١/٩٣١)، وقاموس من تصنيفه هو **المحيط في اللّغة**: ويُعتبر **المحيط** واحدًا من أضخم قواميس اللّغة العربيّة وأشملها. اتّبع فيه ابن عبّاد ترتيب الخليل بن أحمد (ت. ١٧٥/٧٩١) في **كتاب العين**.

يوجز ابن عبّاد في التّاريخ **عنوان المعارف في ذكر الخلائف** المعطيات التّاريخيّة عن الّذين تعاقبوا على تبوُّؤ منصب الخلافة. ليس للكتاب توجّه سياسيّ ظاهر، بل يسرد مختصرًا "من خوطب بالخلافة على النّسق". (٧٦). ولابن عبّاد في تاريخ الوزراء كتاب غير مطوّل هو **كتاب الوزراء**، فيه مسح سِيَريّ لوزراء العبّاسيّين حتّى أواخر القرن الرّابع/العاشر.

الشّعر: نظم ابن عبّاد الشّعر وإنْ كان ديوانه ليس طويلًا، كما يؤكّد موريس بومرانتز مع ذكر لمخطوطة بعنوان **ديوان الصّاحب بن عبّاد** تعود إلى العام ١٧٥٨ ومحفوظة في مكتبة الأصفية في حيدرآباد بالهند. وقد قدّم ابن عبّاد نفسه على شعراء البلاط الآخرين في القرن الرّابع/العاشر بشِعره الّذي جاهر فيه بالقضايا الكلاميّة والدّينيّة الّتي كان ملتزمًا فيها. (٧٨) وهناك شعر لابن عبّاد الدّينيّ في مدح علي بن أبي طالب وأهل البيت. وفي نقد الشّعر ترك بن عبّاد **رسالة في الكشف عن مساوئ المتنبّي** "وهي علامة فارقة في نقد شعر أبي الطّيّب المتنبّي (ت.٣٥٤/٩٦٥) "وقد أبرزت الرّسالة مهارة ابن عبّاد في الحُكم على الأساليب الأدبيّة." (٨٣).

في علوم الأوائل أي الفلسفة الّتي كانت على خلاف مع من يسمّيهم المتفلسفة عقائديًّا واصفًا إيّاهم بأنّهم ينكرون صفات الله إلهًا قادرًا حيًّا سميعًا بصيرًا". "وتلك تهمة كان سائدًا توجيهها ضدّ الفلاسفة من جانب المتكلّمين في القرنين الرابّع والخامس/العاشر والحادي عشر. ويخبر الدّارس أنّ ابن عبّاد كان يقرأ الكتب الفلسفيّة "على وجه التّهجين لا على وجه التّقبّل".

ويختم موريس بومرانتز هذا الفصل قائلًا:

"لم يكن العلم الموسوعيّ متعدّد الجوانب بغريب على القرن الرّابع/العاشر، بل كان على الدّوام لازمة ضروريّة لحمل راية الأدب – وقد تميّز ابن عبّاد عن الجاحظ (ت. ٢٥٥/٨٦٨–٨٦٩) بنتاجه وحرّيّته في الكتابة، وهو صاحب البلاط المثريّ الّذي لم تُرهقه في كتابته قطّ أيّ حاجة اقتصاديّة معيشيّة. لقد سخّر نتاجه المتنوّع في خدمة نسق عقائديّ كان يتبنّاه. وأراد ابن عبّاد أن يبرهن على فائدة مرجوّة من المعارف اللّغويّة والبلاغيّة والنّحويّة والأدبيّة في فهم المسائل الدّينيّة والبلاغيّة. وسعى بطرقه أبواب مجالات معرفة مختلفة إلى بيان محوريّة علم الكلام في شدّ الفكر الإسلاميّ إلى بناء واحدٍ متكامل." (٨٨)

كلمة أخيرة في المؤلّف

حاليًّا يشغل موريس بومرانتز منصب أستاذ مشارك في الأدب بجامعة نيويورك – أبو ظبي ورئيس برنامج دراسات التّقاطعات العربيّة فيها. له أربعة كتب بالإنكليزيّة تعرِّف بجوانب متنوّعة من تاريخ التّأليف الأدبيّ العربيّ.

الدّكتورة حُسن عبّود[٨]

[٨] أستاذة محاضرة في دائرة اللّغة العربيّة ولغات الشّرق الأدنى في الجامعة الأميركيّة في بيروت. باحثة في الدّراسات القرآنيّة والأدبيّة ونظريّات النّقد الأدبيّ، النِسْويّة الإسلاميّة التّأويليّة، رائدات الأدب العربيّ المعاصر، ودور المرأة في ترسيخ الحوار الدّينيّ والثّقافيّ. حائزة شهادة دكتوراه في الإسلام والفلسفة الإسلاميّة، دائرة حضارات الشّرق الأدنى في جامعة تورنتو، كندا– ٢٠٠٦. عنوان الأطروحة: "السّيّدة مريم في القرآن الكريم: قراءة أدبيّة". لها الكثير من المنشورات آخرها كتاب: **مريم في القرآن الكريم: من النّصّ إلى الخطاب** – ٢٠٢٢، بالإضافة إلى عشرات المقالات المحكّمة في كتب ومجلّات علميّة.

hosnabboud@gmail.com